على هامش « حادث الشام »

دموع ... ودموع !

يا أيها العرب جميعاً !
خلدوا (يوم ٢٤ تموز) ، فانه كان
لنا يوم البؤس ، وإنه كان لنا يوم النعيم !

للأســتاذ على الطنطاوى

كنت تلميذاً فى الصف الأدنى من المدرسة الثانوية ، وكان لى رفاق لهم على حداثة أسنانهم قلوب فيها إيمان وفيها حماسة وفيها وطنية ، وكنا نحس وقد ولى حكم الأتراك ، وغاب عنا شبح الذعر والهول : جمال باشا ... واختفت المشانق ، وبطل الهمس ، والتلفت كلما ذكر هذا الإسم الرعب ، وجاء الشريف فيصل وجاءت معه الأفراح ، وقامت الأعراس ، ودقت طبول البشائر... كنا نحس أننا نعيش فى دنيا من الأحلام ، فى أيام كلها أعياد ، وكنا إذ نجول كل خميس فى المدينة ننشد (مرسيليز العرب) :

أيهـا المولى العظيم فخر كل العرب
ملـكك الملك الفخيم ملك جدك النبـى

فيردده معنا التجار فى دكاكينهم ، والباعة من وراء دوابهم ، والمارة فى دروبهم ، وترديده منازل دمشق ودورها ، ومساجدها وقصورها ، وقلعتها وسورها ، وترديده الأرض والسماء ... أو هكذا كان يخيل إلينا ، فيشد هذا الخيال من عزائمنا ، فننتفخ ونتطاول ، ونمد أصواتنا ونقويها لنشعر أنفسنا أننا صرنا رجالا ، وصرنا جنداً كالرجال الذين كنا نراهم يصرخون فى المظاهرات ويلوحون بالسيوف والبنادق ، ويطلقون النار من مسدساتهم كلما أخذت منهم الحماسة وهزهم الطرب ، بعد أن مضت علينا أيام ما كنا نرى فيها فى دمشق رجلا إلا فاراً من الجيش مختبئاً يمشى مشية المذعور ، يخاف أن يلمحه رسول الموت (أبولبادة) فيقول له الكلمة التى حفظناها ، ونحن صغار لا ندرى معناها ، ولكنا ندرى أنها كانت تخيف وترعب ، ويصفر منها الوجه ، وترتجف الاضلاع ، كلمة : (نره وثيقة) ؟

* * *

وإنا لسادرون فى أفراحنا ، ممعنون فى مسراتنا ، مزهوون باستقلالنا ، وإذا بنا نسمع الصريخ يصرخ فى الحى ، ونرى الخطباء يقومون فى الأسواق ينذرون الناس خطباً داهماً ، وشراً مقبلا ، ولم ندر نحن الفتية الصغار ما ذا جرى ؛ فسألناه : هل عاد جمال باشا ؟ هل رجعت مشانقه ؟ قالوا : لا ، جاء ما هو شر منه وأمر ، غورو ؛ قلنا : وما غورو ؟ قالوا : الأعور ... فاعتقدنا أنه الأعور الدجال الذى يظهر فى آخر الزمان !

بها سياق القرآن ، أم يعترض على القرآن ذاته ! ؟

وكأنه يريد أن يأخذ ما فى هذه الآيات فى سهولة ويسر واقتناع وتسليم بدون فكر ومناقشة لأنه يراها لا تنهض ولا تستقيم على الفكر والجدل والمناقشة !

ولست أدرى ما هو « الوجه الواحد الصحيح » الذى تؤمن به النفس فى هذه الآيات إيمان اقتناع وتسليم ، وترفض بعده الأوجه المنطقية الرائقة ؟

أيكون القرآن قد عجز عن إقامة دليل ذهنى واحد على أكبر قضية من قضاياه ، قضية التوحيد ؟ !

ولست أدرى لم يسلك الأستاذ سيد الإسلام مع غيره من الأديان موحدة ووثنية ومعددة فى تلك الطريق التى ليس فيها هدى من نور العقل ، مع أن الفرض أنه يعلم أن القرآن له تفرد خاص وأنه لو لم يكن ديناً موحى به لكان المذهب العقلى الطبيعى الوحيد الذى يثبت الموجود الواحد الكامل الأزلى الأبدى كما أثبته « كانت » ونوه به الأستاذ الكبير العقاد فى كتابه « عبقرية محمد » وكما قرره فى كتابه الأخير (فى بيتى) الملخص لفلسفته وآرائه ؟

وبعد فإنه ليس وراء ما وضعنا القرآن عليه من أعماق الكون مستقر آخر يصح أن نتعمق إليه ونستقر عليه .

وليس مذهب هناك من مذاهب الفكر الخالص يستطيع أن يأخذنا إلى غير ما أخذنا به القرآن فى الطبيعة وما بعد الطبيعة .

إنه أحال كل قضايا الإلهية وكمالاتها إلى قوة الحكم العقلى وحده . فكان لقاء بديع بين الدين والعقل ، وهو لقاء تحتاجه البشرية مسيس الاحتياج .

عبد المنعم خلاف

ورأينا الدنيا تقوم وتقعد ، ففي كل مكان حشد ، وعلى كل منبر خطيب ، وعجت الشوارع بالناس ، ولم نكن نفهم ما يجرى من حولنا ، وإن كنا نسعى في أعقاب الناس متسائلين مشاركين ما استطعنا ، ثم رأينا الجموع تمضي إلى النادي العربي ...

النادي العربي الذي كان مثوى الوطنية ، وكان لنا نحن الصغار المنار الهادي ، من خطبه تعلمنا الخطب ، ومن بيانه قبسنا البيان ، ومن رجاله عرفنا الرجال ، هذا النادي الذي خان أهله عهده ، وهدروا مجده ، وقعدوا به بعد العز ، ونسوه بعد أن كان هو الذي يذكرهم أوطانهم ، فغدا ويا خجلتاه حانة ، أو شيئاً يشبه الحانة ، يقال له شهر زاد !

مضت الجموع إلى النادي يموج بعضها في بعض ، ومضينا نتبعهم ، حتى إذا وقفوا أطل عليهم من شرفته أخطب خطيب عرفته ، وأطلقه لساناً ، وأشرفه بياناً ، وأشده على القلوب سلطاناً شيخنا وأستاذنا الشيخ عبد الرحمن سلام البيروتي الشاعر الفقيه رحمه الله وسيّر في الناس طيّبةً ذكراه ، أطل على بحر من البشر يزخر بأقوام برزوا للموت ، يدفعون النفير عن الحمى ، ويحمون الذمار ، فامتلأ بهم ما بين المستشفى العسكري ، ومحطة الحجاز ، وميدان الشهداء ، وحديقة الأمة ، ولم يبق في تلك الرحاب كلها موطئ قدم ، أطل فلما رأى الناس استعبر وبكى ، وخطب خطبة إذا قلت قد زلزلت القلوب أكون قد أقللت ، وإن قلت ألهبت النفوس لا أكون قد بلغت ، خطبة لو كانت بلاغة بشر معجزة لكانت من معجزات البلاغة ، خطبة ما سمعت مثلها ، وقد سمعت ملوك القول ، وفرسان المنابر ، حملتني هذه الخطبة إلى آفاق المستقبل ، فنسيت أني تلميذ صغير ، ورأيتني رجلا ، ثم صبت البطولة في أعصابي ، فأحسست أني كفولنورو ، وجيشه العادي أرده وحدي ، وكبرت في نفسي حتى صغر هذا الأعور الدجال ، الذي خافوه وخوفونا منه ، فلم يعد شيئاً ، وإني لا أزال أحفظ منها قوله عليه رحمة الله ، وقد سكت لحظة وهو يخطب ، وسكت الناس حتى لو أنك ألقيت إبرة على بساط لسمعت لها صوتاً ، ثم ولى وجهه تلقاء الغرب ، وصرخ من قلبه الكبير صرخة لا تزال إلى اليوم تدوى في مسمعي : « غورو ! لن تدخلها إلا على هذه الأجساد » ! وأعقبها صرخة أخرى ، تقلقل لها الفلك ، ورجف السكون ، تكبيرة واحدة انبعثت من أربعين ألف حنجرة مؤمنة !

ومضى الناس قدماً إلى ميسلون !

أما نحن فمضينا إلى بيوتنا ، فما كان فينا من بلغ سن القتال .

* * *

ولم يكن إلا يوم وبعض يوم حتى رأينا الدنيا تتبدل غير الدنيا وأبصرنا كل شيء قد تغير ، وإذا الناس في جود كأنهم في مأتم ، وإذا الخطباء الذين كانوا ملء الأسماع والأبصار قد اختفوا ، وإذا الأعلام ذوات الألوان الأربعة قد طويت ، وإذا فيصل الذي كنا نهتف باسمه ونعتز به ، ويشعر كل واحدنا أنه يملك فيه ملكاً إذ يكون له مَلِكاً ، قد سافر وخلا منه قصره في (المفيف) ، فاحتله عدوه ، ونام فيه على فرشه ، واستوى على عرشه ، فخرنا وسألنا : ما ذا جرى يا ويحكم حتى انهار الصرح في يوم واحد ، وضاع البِشر ، وتبدلت الدنيا ، قالوا : اذهبوا لا تسألوا ، إننا خسرنا ، ورجعنا من (ميسلون) ، وقد خلفنا فيها استقلالنا الوليد ، وقائدنا الشهيد ، وصارت الغلبة لهذا العادي العاتي الذي اقتحم علينا البلد اقتحام الغاصب ، غورو ! قلنا : الأعور الدجال ؟ قالوا : اسكتوا ، اسكتوا ، لا يسمعكم أحد

وذهبنا نستطلع حقيقة الخبر ، فقادتنا الخطا إلى (الثكنة الحيدية) ، فوجدنا عندها جنداً غرباء عنا ، سوداً برابرة ، وسمراً مغاربة ، وشقراً فرنسيين ، وإذا هم يخفضون علمنا ، ويلقونه ويرفعون علماً فيه ثلاثة ألوان ... وتلفت فإذا رجال منا واقفون ورائي ، ودموعهم تسيل على خدودهم في صمت وحرقة وألم خفي يأكل الأكباد ، وكان ذلك يوم ٢٤ تموز سنة ١٩٢٠ ، وكانت تلك هي (الدموع) الأولى !

* * *

ومر ربع قرن ، خمس وعشرون سنة كاملة لا تنقص يوماً ولا تزيد يوماً ، حملنا فيها ألوان الأذى ، وذقنا فيها الموت من كل طبق ، وعلى كل خوان ، ورأينا النار تأكل دورنا ، والقنابل تهدم على رؤوسنا منازلنا ، فتهدمت بيوت من أبهى وأغلى وأحلى بيوت دمشق ، وقضى فتية من أجل وأكمل وأنبل فتيتها .

وأبصرنا أياماً سوداً ، ومصائب شداداً ، ولكنا ما جبنا ولا خفنا . وكنا عزلاً أقلة ، وكانت تريعتنا فرنسا القوية العظيمة ذات الحول والطول ، فقارعنا فرنسا ، ولقينا بصدورنا الرصاص ، وهجمنا بالخناجر على الدبابات ، وقابلنا بالحجارة الرشاشات ، وصبرنا فانتصرنا .

وكان يوم ٢٤ تموز سنة ١٩٤٥ ، ورأيت بعيني العلم ذا الألوان الأربعة يرتفع مرة ثانية على (الثكنة الحيدية) في دمشق ، ورأيت